

المؤتلف الإنساني: رؤية كونية

■ محمد الشيخ

بدايةً لا بد مما ليس منه بُدّ. ومما ليس منه بُدّ التقدّم بالشكر إلى وزارة الأوقاف والشؤون الدينية على مبادرتها النبيلة التي أثارته من خلالها انتباه المثقفين والمفكرين المعاصرين إلى ضرورة العناية بأمر «المؤتلف الإنساني»، وذلك في زمن صار فيه، مع الأسف، «المختلف الإنساني» هو الطاعي، تماشياً مع روح وقتنا هذا في التهوس بالهويات المنغلقة.

وبعد، فإن حديثي سوف يدور على قضايا خمس يثيرها إعلان السلطان قابوس للمؤتلف الإنساني:

- 1 - ما هي بعض أسس المؤتلف الإنساني الجوهرية؟
- 2 - المؤتلف الإنساني يا ترى «معطى» أم إنه «مبنى»؟ أهو «وهب» للإنسان أم إنه «كسب»؟
- 3 - ما هي أبعاد المؤتلف الإنساني الأساسية؟

■ باحث، وأستاذ في الفلسفة الحديثة، المغرب.



4 - من هم مفكرو المؤتلف الإنساني عبر التاريخ الفكري فيما أتيح من أنظار للبشرية جمعاء؟

5 - وهل يمكن أن نسهم - نحن معشر العرب - من داخل تراثنا العربي في تجديد القول في شأن «المؤتلف الإنساني»؟

1 - بعض النماذج من أسس المؤتلف الإنساني:

دون رغبة منا في الانطلاق من «مجردات» و«يوطوبيات» لنتقدم - على سبيل الاختبار الهين - ولنأخذ القاعدة الذهبية التي تؤسس للمؤتلف الإنساني، وهي قاعدة رغبة الإنسان العميقة والدفينة في أن يعامله غيره معاملة تليق به، وذلك في أربع حضارات / ثقافات بشرية كبرى؛ نعني قاعدة «عامل غيرك بما تود أن يعاملك به» والتي خصصها الفيلسوف الألماني كانط حين صاغها في مبدأ إنساني شامل: عامل غيرك من حيث هو «شخص» - إنسان مثلك أي: لا من حيث هو «وسيلة» - أداة لتحقيق أغراضك.

1 - وقد وردت في الحكمة الصينية القديمة عند كونفوشيوس (551 - 479 ق.م.) العبارة عن هذه القاعدة على النحو التالي: «لا تفعل بغيرك ما لا تريد أن يفعل بك».

2 - ونعثر في الثقافة الهندية - في كتاب المهابهاراتا الشهير - على ما يلي: «كل ما لا يرجو المرء أن يُفعل به، عليه أن يمتنع عن فعله بغيره».

3 - ونلفي في التلمود اليهودي (شبات 31) القول التالي: «ما يزعجك لا تفعله بقريبك، أحب قريبك مثلما تحب نفسك. هذا هو أساس التلمود، أما البقية فمجرد حواشٍ على هذه الحكمة».

4 - وأخيراً، جاء في الثقافة الإسلامية قول الشاعر التركي يونس إمر (ق 13): «ما تفكر فيه لنفسك فكر فيه لأغيارك. المعنى الخفي للكتابات المقدسة عبارة عن ملخص لهذه الكلمات».

على ماذا دل هذا التماثل في إجماع العديد من الحضارات، والثقافات التابعة لها، على هذه القاعدة الذهبية؟ الحق أنه دل على أن ما يؤلف هذه الأشكال التعبيرية عن «الإنساني» أكثر مما يخالف بينها. وذلك على عكس شيوع الاحتفاء بالاختلاف المتوحش والمغايرة المتطرفة، التي تقود إلى القول بخصوصية متوقعة وبأصالة متشجعة.

هردر: الإنسانية هي ما يميّز كل نوعنا، وهي لا توجد فينا إلا بوصفها «إمكاناً منشئياً»، ولذلك ينبغي تربيتها في أنفسنا. فنحن لا نحملها في ذواتنا جاهزة وقد أتينا بها معنا إلى هذا العالم؛ وإنما تتطلب منا بذل الجهد... تربية / تهذيب / تشذيب الإنسانية التي نحملها فينا.

2 - المؤتلف الإنساني: معطى أم مبنى؟

لكن دعنا نتساءل الآن: هذا «المؤتلف الإنساني» الذي يشكل نقطة تقاطع الحضارات والثقافات البشرية «وهب» لنا أم «كسب» لنا؟ بمعنى آخر «أيولد» الإنسان إنساناً، أم إنه يولد «كائناً» ثم «يصير» بعد ذلك إنساناً؟ وهل الإنسانية «فطرة» أم «صيرورة»؟ لنستمزج آراء بعض المفكرين والفلاسفة الكبار:

أرسطو (القرن 4 ق.م.): الإنسانية أفق، وكل إنسان إنسان حقاً يسعى إلى أفقه.

هردر (1796): الإنسانية هي ما يميّز كل نوعنا، وهي لا توجد فينا إلا بوصفها «إمكاناً منشئياً»، ولذلك ينبغي تربيتها في أنفسنا. فنحن لا نحملها في ذواتنا جاهزة وقد أتينا بها معنا إلى هذا العالم؛ وإنما تتطلب منا بذل الجهد... تربية / تهذيب / تشذيب الإنسانية التي نحملها فينا. وينبغي لتربية الإنسانية هذه - فلاحه الإنسانية / تثقيف الإنسانية - فينا أن تكون عملاً موصولاً لا يتناهى ولا يتوقف؛ وإلا فإننا سرعان ما نتردى - كباراً وصغاراً - إلى مرتبة البهيمية والغلظة البدائيين.

مونتيني (1533 - 1592): كتب الرجل عن ضرورة الاحترام وعن واجب الإنسانية لا نحو الكائنات التي لها حياة وإحساس، ولكن أيضاً نحو الأشجار والنباتات. وفي ما يخص بني البشر في ما بينهم؛ فإن واجب الإنسانية هو



العدل، وفي ما يخص واجب بني البشر تجاه غيرهم من الكائنات، فإنه ينبغي أن يكون اللطف نحو باقي الكائنات التي تشعر بذلك. وإذن ثمة واجب إنسانيان: واحد نابع من الإنسان نحو الإنسان، وهو واجب العدل، وآخر نابع من الإنسان نحو الكائن، وهو واجب اللطف.

وبالجملة تبين أن «المؤتلف الإنساني» ليس مسألة ولادة أو خلقة أو فطرة، وإنما هو - بالأولى - مسألة تربية وثقافة وتنشئة اجتماعية.

3- المؤتلف الإنساني والمواطنة العالمية: أبعاد المؤتلف الإنساني الثلاثة

حين كان سقراط يُسأل: من أي بلد أنت؟ كان يجيب: أنا مواطن من العالم. وعلى نهجه صار تلميذه ديوغانس، والإمبراطور الرواقي ماركوس أوريليوس في تعليقه على قولة سقراط، وكذلك الحكيم الفرنسي مونتيني في نفس التعليق، وقس على ذلك الفيلسوف الألماني كانط: النزعة الكوسموبوليتية.

وقد تحقق أن ثمة ضريين من النزوع المؤتلفي: واحد ينحدر عن الفيلسوف الكلي ديوجينس، والآخر سليل النزوع الرواقي اليوناني الروماني:

ينقل لنا التقليد أن ديوجينس الكلي (حوالي 412 - 323 ق.م.) كان أول من أعلن أنه «مواطن عالمي» Kosmopolites اقتداءً بأستاذه سقراط. وقد ورث عنه النزعة الكوسموبوليتية (الكونية) المعاصرة نزوعه إلى نقد الجماعة المعطاة بالولادة أو بالوفادة، ورفضه التماهي معاً أو الإذعان لها.

ثم جاء زينون الكيتومي (336 - 263 ق.م.) ومعه تم الانتقال من فكرة عدّ البشر مواطني العالم، إلى فكرة إلزام اعتبار كل البشر مواطنين تابعين للعالم يتشاطرون أجمعين العقل - اللوغوس - الكوني في مدينته الفاضلة «بوليتيا» التي يقطن فيها البشر الحكماء والذين وحدهم يحققون ذواتهم ويتشاطرون وضع مساواة حقيقي.

وفي الوسط الروماني - وبفضل الحكيم والخطيب شيشرون (106-43 ق.م.) - تم تأكيد الطابع التضامني للأخلاق، وأمست النزعة الكونية ضرباً من «الأداب» أو «الإتيقا» التي ينبغي العيش بوفقها؛ إذ شارك شيشرون الرواقيين الإغريق فكرة أن كل الكائنات البشرية، بقدر ما هي مميزة بالعقل وباللغة، تنتمي إلى المجتمع البشري، بصرف النظر عن الروابط السياسية والاجتماعية المتعددة التي يجد البشر أنفسهم منخرطين فيها. وقد تطورت لديه فكرة وجود غايات مجتمع بشري كوني مع فكرة الغايات الأخلاقية لهذا المجتمع: العدالة ورفاهية البشر مع احترام الفعل البشري.

في كتاب كانط «مشروع للسلام الدائم» (1795) نعثر لديه على فكرة إلزام الدول بالاعتراف بأن كل كائن بشري له الحق في زيارة أي بلد أجنبي من غير أن يعامل معاملة عدو، مما يرسم معالم مواطنة عالمية، ويمهد لتأسيس «جمهورية كونية».

وفي القرن السابع عشر مع فقهاء الحق الطبيعي (هيجو غروتوس وصامويل بوفندورف) وخلال القرن الذي يليه (كانط)، شكل هذان التوجّهان الكونيان الموروثان عن الأقدمين المعين الذي نهلت منه النزعة الكونية. ففي كتاب كانط «مشروع للسلام الدائم» (1795) نعثر لديه على فكرة إلزام الدول بالاعتراف بأن كل كائن بشري له الحق في زيارة أي بلد أجنبي من غير أن يعامل معاملة عدو، مما يرسم معالم

مواطنة عالمية، ويمهد لتأسيس «جمهورية كونية»، حسبها كانط هي الغاية النهائية التي يسعى إليها التاريخ. وقد اعتنقت الفيلسوفة السياسية الألمانية حنة آرندت - في القرن العشرين - هذا المثال الكوسموبوليتي الكانطي، ناقدة الدولة القومية التقليدية، وفي الوقت نفسه نظرت إلى «الجمهورية الكونية» بعين الريبة مخافة أن تتحول إلى طاغوت، مكتفية بفكرة أننا - معشر البشر - أعضاء في جماعة كونية فحسب بسبب من كوننا كائنات بشرية، وهذا الوجود الكوني ينبغي أن يترجم إلى قدرة على الحكم وعلى التصرف السياسي تحت توجيه كوننا مواطنين عالميين؛ ومشاهدين من ثم



لما يقع في العالم. وقد حولت لوغوس القدماء إلى حوار المحدثين المؤمن بالتعددية وبالعقل التواصلي، ثم سرعان ما تناسلت المشاريع الكونية حتى تعدت العشرين مشروعاً أو أكثر...

هذا وقد وَسَمَ العديد من المفكرين فِكْرَهُم بميسم «الكونية»، وقُدِّم العديد من النظريات إلى الجمهور بحسبانها كونيّة، وذلك من مجال الأخلاقيات إلى مجال القانونيات، ومن مجال الدراسات الثقافية إلى مجال الدراسات الجنوسية. ثمة إمكان تصنيف هذه النزوعات الكونية المتنوعة إلى ثلاث فئات رئيسية: الكونية الأخلاقية، والكونية السياسية - الشرعية، والكونية الثقافية:

أ - المؤتلف الإنساني الأخلاقي:

يمكن تعريف النزعة الأخلاقية الكونية بوصفها نظرة ترى أن كل الكائنات البشرية إنما هي أعضاء جماعة أخلاقية واحدة، وأن عليها إلتزامات أخلاقية تجاه باقي الكائنات البشرية، وذلك بغض النظر عن جنسياتها ولغاتها وأديانها وعوائدها. نماذج ثلاثة من هذه النزعات: الفيلسوف الأمريكي المعاصر شارل بيتز، والفيلسوف الألماني المعاصر توماس بوغ، والفيلسوفة الأمريكية مارتا نوسباوم.

ب - المؤتلف الإنساني السياسي:

أما النزعة الكونية السياسية - الشرعية أو الحقوقية فتدعو إلى خَلْق مؤسسات سياسية تشريعية ديمقراطية كونيّة، تضمن استمتاع كل مواطني العالم بالحقوق وبالمشاركة السياسية. نماذج هذه النظريات: نموذج المفكرة البريطانية ماري كالدور عن «المجتمع المدني الكوني»، ونموذج عالم السياسة البريطاني ديفيد هيلد عن «الديمقراطية الاجتماعية الكونية»، ونموذج المنظر السياسي والاقتصادي الإيطالي دانييلي أرشيبوجي عن «كومونيلث المواطنين الشامل»، ونموذج المفكرة والفيلسوف الأمريكية سائلة بنحبيب عن «العضوية

الكوسموبوليتية العادلة»، ونموذج عالم الاجتماع البرتغالي بوناقتورا دو سوزا سانتوس عن «الكوسموبوليتية التابعة».

ج - المؤتلف الإنساني الثقافي:

وأما النزعة الكونية الثقافية فإنها تبتغي تطوير الممارسات الكونية، أو تحقيق ممارسات جديدة في سياق الثقافات غير الغربية، وذلك عبر أشكال من «المحادثات الكونية» تضمن حق الاختلاف الثقافي. نموذج الفيلسوف الكندي المعاصر ذي الأصول الإفريقية أنطوني كوامي أيباه

يمكن تعريف النزعة الأخلاقية الكونية بوصفها نظرة ترى أن كل الكائنات البشرية إنما هي أعضاء جماعة أخلاقية واحدة، وأن عليها إلتزامات أخلاقية تجاه باقي الكائنات البشرية، وذلك بغض النظر عن جنسياتها ولغاتها وأديانها وعوائدها.

وكوسموبوليته المدعوة «النزعة الكونية المتأصلة أو المتجدرة»، ودعوته إلى «المحادثة الكونية» المجسرة للتجارب الثقافية المتعددة، ونموذج المفكر الأمريكي ذي الأصل الهندي هومي بهابها الداعي إلى ما يسميه «النزعة الكونية البلدية»، التي تسعى إلى أن تجد لها موطئ قدم بين القومية التحريرية والنزعة الكونية التجنيسية.

4 - من هم مفكرو «المؤتلف الإنساني»؟

بعض من المنارات في مسيرة فكرة المؤتلف الإنساني

هذه بعض المحطات الأساسية في بلورة فكرة «المؤتلف الإنساني» على نحو كوني؛ أي من خلال المتاح للبشرية جمعاء:

القديس أوغسطينوس (ق4): «النوع البشري برمته - باعتقاده في وحدة الأصل - لا يأتلف فحسب، وإنما يتأخى أيضاً».

القديس توما الأكويني (ق13م): «كل بني البشر كأنهم إنسان واحد يأتلفون في طبيعة كونهم بشراً».



غويوم الأوكامي (حوالي 1280 - 1344): «كل البشر يأتلفون في جسد واحدٍ وأمةٍ واحدة».

جون بودان (ق 16): «كل بني البشر يرتبطون بعضهم ببعض ويسهمون على نحو رائع في دولة كونية».

لايبنتز (ق 17): «لست تراني أعد نفسي من أولئك الذين يتعصبون لبلدهم أو لأمة بعينها، وإنما أسير في خدمة النوع البشري برمته؛ لأنني أعدّ السماء موطناً، وكل البشر من ذوي النيات الحسنة مواطنون في هذه السماء. مونتيسيكو (ق 18): لئن كنت أعلم أن أمراً مفيداً لأمتي لكنه مدمر لأخرى ما اقترحتة على أميرى؛ لأنني إنسانٌ قبل أن أكون فرنسياً، ولأنني إنسان بالضرورة فرنسي بالصدفة».

5 - الإسهامات العربية الإسلامية في المؤتلف الإنساني:

ولى الزمان الذي كان فيه الشعوبي يؤلف الرسالة عن تفضيل العجم على العرب (ابن عرس)، فيرد عليه العروبي بتأليف رسالة الاستدلال بالحق في تفضيل العرب على جميع الخلق (أبو مروان الأوسي).

الوزير ابن سمرعان في الإمتاع والمؤانسة: «لكل أمة فضائل وريذائل [المؤتلف الإنساني ينشد الفضائل وينبذ الرذائل]، ولكل قوم محاسن ومساوئ».

أبو سليمان السجستاني المنطقي: «اشتركت الأمم في جميع الخيرات والشرور» [والمؤتلف الإنساني يريد اشتراك الأمم في الخيرات]. «الأمم كلها شركاء في العقول، وإن اختلفوا في اللغات» [والعقل من أسس المؤتلف الإنساني].

صاحب مقالة في الأخلاق: «الناس قبيل واحد متناسبون تجمعهم الإنسانية... والناس كلهم بالحقيقة شيء واحد، وبالأشخاص كثيرون».

كان الفقيه الأصولي ابن دقيق العيد يخاطب عامة الناس - السلطان فمن دونه - بقوله: يا إنسان.

ودقَّ رجلٌ على أبي نعيم الفضل بن دكين الباب، فقال: من ذا؟ قال: أنا، قال: من أنا؟ قال: رجل من ولد آدم، فخرج إليه أبو نعيم، وقبله، وقال: مرحباً وأهلاً، ما ظننت أنه بقي من هذا النسل أحد.

هذا وقد استشكل العرب والمسلمون مسألة «إنسانية الإنسان»، ومنه سؤال الحكيم أبي الفتح بن كوشك إلى أحد علماء الكلام: «يا سيد، بِمَ عرفت أنك إنسان؟» ومنه قول أبي حيان التوحيدي في كتاب «الهوامل والشوامل»: «فإن الإنسان قد أشكَل عليه الإنسان».

قال أبو سليمان السجستاني المنطقي: «اشتركت الأمم في جميع الخيرات والشرور» [والمؤتلف الإنساني يريد اشتراك الأمم في الخيرات].
العقول، وإن اختلفوا في اللغات» [والعقل من أسس المؤتلف الإنساني].

واليوم لا زلنا نعيش على هذا الاستشكال؛ إذ صرنا نخشى أن تصير «الإنسانية» فينا قليلة، كما نخشى أن يمسي «المؤتلف الإنساني» فينا نادراً، و«المختلف الإنساني» فينا شائعاً فاشياً. كان الراغب الأصفهاني يقول في زمانه وأهل زمانه: «كاد قولنا «الإنسان» يصير لفظاً مطلقاً على معنى غير موجود، واسماً لحيوان غير معهود، كعنزائيل وعنقاء مغرب، وغير ذلك من الأسامي التي لا معنى لها». فكيف - يا ترى - يمكن أن نقول اليوم؟

ومتى يفقد الإنسان إنسانيته؟ كان الشاعر

الصوفي الفارسي فريد الدين العطار يقول حين يرى سلوكاً صادراً من إنسان يزري بإنسانيته: «أخجل من آدميتي». وكان الفقيه السخاوي يقول عن كل إنسان ظالم: «كان عاراً على جميع بني آدم». ولهذا رأى الفيلسوف العربي المسيحي ابن زرعة - تأسياً في ذلك بأرسطو - أن الإنسان أفق، وأن الخروج عن أفق الإنسانية هو الصيرورة إلى ما هو أرذل من البهيمة.

وما الذي تعنيه - يا ترى - «الإنسانية»؟

كان ابن جعفر القروي يقول: «حقيقة الإنسانية ألا يتأذى منك إنسان». وكان الراغب الأصفهاني يقول: «الإنسانية هي تعاطي الفعل المختص



بالإنسان؛ ولذلك ما فتئ يوصي: «على الإنسان أن يراعي ما به صار إنساناً وهو العلم الحق والعمل المحكم».

والحال أن سمات «العدل» و«العقل» و«الخلق» هذه هي التي نص عليها إعلان المؤلف الإنساني. إذ وجدنا أن سمة «العقل» من أسس المؤلف الإنساني؛ وفيها قال أبو الحسن العامري: «حيث لا عفة ولا عقل، فهناك البهيمية المحضة»، وقال الحارث المحاسبي: «لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل».

وبالجملة واهمُّ هو مَنْ أنكر على التراث العربي أن يكون قد فكّر في أمر «الإنسان» و«المؤلف الإنساني» وفي شأن «الإنسانية»، وإنما الإشكال كل الإشكال في أننا لم نقرأ بعد تراثنا القراءة التي يستحقها. ولعل إعلان المؤلف الإنساني هذا قد ينبهنا إلى ضرورة إجراء هذه القراءة.